

الدمج اجتماعياً ومدرسياً من دون دراسة علمية ومتابعة فعلية يؤدي الطفل المتوحد

غريبة لـ «البناء»: ما قدمه ليس علاجاً إنما نمط حياة

عبير حمدان

استطاع «علي» أن يغيّر نمط حياة الكثيرين. هو مختلف بقدرته الملاكية على رسم الخطوط الأساسية للدرب الذي سار عليه والداه الدكتور حسين غربية والدكتورة شفيقة منصور غربية منذ أسسوا «الجمعية العلمية للأوتيزم والتحليل السلوكي» «Ali for ABA Society».

تقول الدكتورة غربية إن ولدها هو الملهم لكل ما تقوم به، ومنه تستمد القوة للبقاء. وتشير إلى أهمية التعااطي بجديّة مع الطفل المتوحد على قاعدة الاختصاص العلمي لا الاستعراض والمتاجرة.

غربية التي تخصصت في بريطانيا تؤكد أن التعااطي مع الذي يعاني الاضطراب السلوكي المعروف بالتوحد، يجب ألا يكون على خلفية العلاج فحسب، بل هو نمط حياة طويلة يستدعي التعاون بين المقدرة العلمية والبيئة الاجتماعية بإطار فعال.

وتؤكد أن مبدأ الدمج يجب أن يقوم على أسس علمية ومتابعة فعلية للحالات الخاصة كي لا يشعر الطفل المتوحد بأنه منبوذ من أطفال حوله لا يفهمون طبيعة معاناته. لذلك ترى أن عملية الدمج التي تعمل بعض الجمعيات والمدارس على الترويج لها ناقصة وغير واقعية.

نبدأ مع الدكتورة غربية من مقاعد الدراسة التخصصية لتقول: اختصاصي دكتوراه في التعليم والتحليل السلوكي واللغوي وهو غير موجود في لبنان. لذلك درست في لندن في جامعة «برونيل». من خلال هذا الاختصاص يمكنك أن تعلمي المهارات التي يحتاج إليها بطريقة مفهومة بالنسبة إليه، ومحبة عن طريق التواصل الإيجابي ومنحه كل المساعدة الممكنة مع السعي إلى تحفيزه كي يكون مستقلاً. ولكي ينجح هذا الأسلوب، يجب أن يكون الأهل مدرّبين بالشكل الصحيح وكذلك كل الموجودين في محيطه. بحيث أن المهارات التي يكتسبها يقوم باستعمالها في محيطه الطبيعي وبالتالي لا يخسرهما.

ما أشير إليه يكمن في دراسات كبيرة، واحداها قمنا بها على مدى سنتين في جامعة «برونيل» بشكل مكثف. حيث عملنا مع عشرة أولاد في المركز ودربنا أهاليهم. ولأن الأهل شاركوا في الدراسة أتت النتائج مبهرة مع أبناءهم، وبالتالي توزع هؤلاء الأطفال على مدارس عدة من دون أي مساعدة. من هنا تبرز أهمية دور الأهل في تحسين وضع أولادهم، وبذلك أخرجنا الأهل من حالة التوتر حيث أن بعضهم كانوا قد وصلوا إلى ميول انتحارية قبل خوض تجربة المشاركة في الدراسة.

وتضيف في إطار متصل: للأسف في لبنان لا يزال عمل بعض الجمعيات قائماً على مبدأ مغلوط يقوم على الطريقة الفريكوونية. حيث يعملون على تعليم النطق للطفل من خلال جلسات في الأسبوع مدة الجلسة 25 دقيقة، يرافقه الحس الحركي والعلاج النفسي، من دون أن تكون الأهل أي دراية بطبيعة العلاج وبالتالي لا ترى نتائج ملموسة، وبعض الأهالي يشكون لاحقاً من حجم التكلفة الباهظة من دون الوصول إلى مكان. المطلوب إيصال كل المفاهيم المطلوبة إلى الطفل بطريقة ملموسة. وبالتالي يبقى العلاج الشمولي هو الأمل.

منذ أسستنا مركزنا كان شرطنا الأساس مشاركة الأهل كي نصل بالطفل المتوحد إلى مرحلة متقدمة في العلاج.

أبرز الحالات

خلال سنوات العمل مع الأطفال، برزت حالات لافتة تضيء عليها الدكتور غربية بالقول: بدأت بتأسيس الجمعية عام 2003، وحصلنا على العلم والخبر عام 2004. حيث افتتحتنا المركز في «ليسيه سان جاد» وهي مدرسة عادية. وكنا نعمل مع الأولاد بشكل تدريجي، ثم ندمجهم في الصفوف العادية. وكل الأولاد كان لديهم دمج اجتماعي في أوقات الفرض والرياضة، وكنا نلجأ لأولاداً من الصفوف العادية إلى الصفوف التي تضم الحالات الخاصة لكي يعتاد الولد المتوحد على قرينه النموذجي. وبعد ثمانية سنوات قرّرنا أن يكون لنا مركزنا الخاص في منطقة ذات طبيعة بيئية مريحة ومناخ مريح وصحي، فوقع الاختيار على منطقة عين غروب. اليوم لدينا أطفال من كل لبنان ومن دول الإقتراب. ولدينا أولاد كثيرون باتت حالتهم الاجتماعية طبيعية واندمجوا في مجتمعهم بشكل كبير. خلال مسيرتنا من علينا الكثير من الحالات البارزة، حتى خلال تجربتي الشخصية في بريطانيا عالجت حالتين من التوحد المتوسط حتى أنهما كانا يفتقدان القدرة على الكلام. واليوم هما يدرسان في الجامعة بشكل عادي.

أما في المركز هنا، فأحب الإضاءة على بعض الحالات أوّلها الطفل «أمجد» الذي يقيم اليوم في الإمارات. وهو لبناني كان يعاني من التوحد المتوسط. وقيل سفره بسنة واحدة خضع لفحص في الجامعة الأميركية فكانت نسبة التفاعل لديه متقدمة جداً وهو الآن في مدرسة عادية في المرحلة الابتدائية. ولدينا طفل ثان من سورية أتى مع والدته التي بقيت هنا سنة كاملة، وهو اليوم مندمج بشكل جيد مع المجتمع. وتشير غربية إلى أن بعض الأهل يطلبون منهم ألا يذكروا المرحلة التي مرّ بها أبناءهم لاعتقادهم أنهم يقومون بحمايتهم.

تشدد غربية على أهمية العمل بشكل مبكر مع الولد المتوحد كي يكون العلاج فعالاً، وتحدث عن الطفل «فضل» فتقول: «فضل» عمره خمس سنوات. وكان يعاني من صعوبات سلوكية قوية. عملت معه ولاحظت أن لديه قدرات عالية، ولكنه بسبب الصعوبات السلوكية وغياب التواصل لا يمكنهم إدراك قدراته على رغم أنه مسجل في مدرسة دمجية. هذا الطفل يمكنه خلال ساعة واحدة أن يتعلم ما يتعلمه طفل نموذجي خلال شهر كامل. لديه قدرة هائلة على القراءة، ولمجرّد أن يرى الكلمة يتمكّن من كتابتها. وأي رقم تعطيه إياه يجمعه بشكل سريع. ومع الوقت أصبح سلوكه أفضل.

أما «زاهي» التي أتت إلينا من البرازيل، ف لديه سلوك خاص يعتمد على لينال ما يريد. هو اعتاد أن يفتعل مشكلة مع المعلمة في مدرسته كي يخرج من الوضع الذي يراه مزعجاً. لذلك وصل إلى حدّ أن يضرب المعلمة وبالتالي تكون والدته في انتظاره خارجاً ليرتك المدرسة. في يومه الأول طلب أن



وهناك امرأة تبلغ من العمر 27 سنة حين تربيتها تظن أنها تعاني تخلفاً عقلياً كونها تصدر أصواتاً غير مفهومة، إضافة إلى حركات كثيرة تعتبر غريبة، وعن طريق الصدفة أحضروا لها حاسوباً ببرنامجاً ناطقاً لمجرّد طباعة الأحرف، وبشكل تلقائي وسريع بدأت بالطباعة وكانها تتخاطب من حولها. وتصورّي أنها قالت: «لو رأيتموني في الشارع لن تصدقوا أنني هذه الفتاة التي تتكلم على هذا النحو، فانا حين أتصرّف على هذا النحو الذي تستغربونه، فهذا لأنكم لا تفهموني، ولكن حين أعطيتوني أداة تفهمونها أصبح لدي قدرة على التواصل معكم ولكن لماذا لا تقولون لأنفسكم انكم لا تملكون قدرة للتواصل معي، أنا أعرف ما يحيط بي، وترجعني نظرة الناس إلي». الخلاصة أن البعض لديهم القدرة على الاستيعاب والإصغاء، ولو أنه يظهر عليهم عكس ذلك، وإن لم يفهمهم من حولهم فتكون النتيجة انطوائهم على ذاتهم أكثر.

الدمج الجسدي

أما في ما يتصل بعملية الدمج الجسدي فتقول غربية: للأسف هناك بعض الأهالي يرفضون الاعتراف بواقع الحالة التي يعاني منها أولادهم. ويصرّون على إلحاقهم بمدارس يُقال إنها تعتمد الدمج الجسدي بين المتوحد والنموذجي. في هذه المدارس يكون هناك وجود لبعض الجمعيات والنوذجي. خلال معلمة خاصة، وهذه المدارس تقبض مبالغ طائلة من دون إحراز أي نتيجة. فحين نضع الطفل المتوحد في مدرسة عادية من دون دراسة علمية صحيحة، يصبح الدمج جسدياً فحسب. إذ إن الطفل لا يتالم المهارات اللازمة، وحين يصل إلى المرحلة الابتدائية يتم رفضه من قبل المدرسة كونه لم يكتسب أي مهارات تعليمية ولم يندمج مع محيطه بالشكل الصحيح. أنا ضدّ هذا الأسلوب التجاري الذي يصل بالأهل إلى طريق مسدود ولا يساعد الطفل في الإطلاق. ليس المطلوب أن يكون مع الطفل المتوحد مراقبة تمسك يده ليستعمل القلم. بل يجب أن تعلمه كيف يستعمل القلم وحده وكيف يتفاعل مع محيطه ويشعر بأنه جزء من هذا النسيج لا حالة نافرة ومستهجنة.

وتختتم غربية بالإشارة إلى أنها ستضمّ أبحاثها ودراساتها في كتاب خاص بها في محاولة منها لنشر الوعي وإيصال المفاهيم العلمية إلى الناس بشكلها الصحيح.

ما هو التحليل السلوكي؟

«ABA/ VB»، أو التحليل السلوكي، هو برنامج خصّص لتعليم أولاد التوحد وذوي الاحتياجات الإضافية، بغض النظر عن مكان التعليم (البيت أو المدرسة). وهو مبني على أساس نظام تدريبيّ مخصّص لدراسة سلوك الإنسان وفهمه وتحسينه. صمّم «ABA» لكي يلبي حاجة الطفل وتعليمه المهارات التي يحتاج إليها عن طريق استعمال التحفيز الإيجابي، المكافأة، المساعدة، لكي يستطيع الاعتماد على نفسه بشكل تلقائي.

وعلى رغم وجود عدّة طرق وعلاجات وبرامج تدريبية متعدّدة لمساعدة الأولاد الذين يعانون من التوحد، فإن أسلوب التحليل السلوكي «ABA/ VB» هو الوحيد الذي خضع للابحاث والدراسات العلمية. في عام 1981 صنّف هذا البرنامج من أفضل العلاجات والأكثر فعالية. وأشارت هذه الدراسات إلى أن 20 في المئة إلى 47 في المئة من الأولاد الموصوفين بالتوحد، استنفوا من هذا التصنيف بعدما خضعوا للبرنامج المذكور وبشكل مكثف، وبالتالي دخلوا المدارس العادية من دون الحاجة إلى أي مساعدة إضافية.

يمدنا «ABA/ VB» بأداة لتعليم الأولاد مهارات جديدة عن طريق تبسيط هذه المهارات إلى وحدات صغيرة يستطيع المصاب بالتوحد (مع المساعدة والمكافأة) القيام بها. والعمل بعد ذلك على زيادة هذه الوحدات تدريجياً لتساعد في القيام بهذه المهارات بشكل تام وكامل.

يذهب إلى المنزل، وبالفعل ضربني، ولكنني لم أكره لهذا السلوك. فقال لي: «يمكنني أن أذهب إلى البيت الآن؟»، فأجبت بالرفض، وبأنه يجب أن يبقى حتى نهاية الدوام. وبالفعل هذا ما حصل. وتدرجياً، تخلّى عن سلوكه وبرزت لديه قدرة على إتقان اللغات سريعاً. كدنا معلمة تتكلم الإسبانية، وعلى الفور استطاع «زاهي» أن يتكلم الإسبانية بشكل صحيح وكذلك الإنكليزية من دون أي مساعدة من أحد، على رغم أن اللغة المعتمدة في البرازيل هي البرتغالية. هذه الحالات المتميزة تؤكد أهمية العلاج بشكل علمي ومدرّس.

أما عن درجات التوحد فتقول غربية: في حالة التوحد لا يوجد ولد يشبه الثاني. لكل حالة طبيعتها الخاصة. ثمة أمثلة على حالات عبقريّة. فعلاً هناك ولد اسمه «ستيفان» في بريطانيا، يرى المشهد لمرة واحدة ويرسمه على الفور، وهو بالفعل رسم البرلمان البريطاني بشكل متكامل ولم يقص منه أي تفصيل على رغم أنه لا يعرف الحساب. كما أنه رسم المدينة (لندن) بعد أن راهما من الأعلى في الطائرة. وهناك أيضاً ضريح يعاني التوحد، وقد تم اكتشاف قدرته على عزف أي مقطوعة موسيقية على البيانو لمجرّد أن يسمعها، علماً أنه لم يتلق دروساً في العزف.

